ابراهيم باشا، فاستعان هذا الأخير بالموارنة ضد القيادات الدرزية، مما أجج المشاعر الطائفية وزاد التوتر، ولا سيما بعد نفي الأمير بشير وتعيين بشير القاسم أميراً على لبنان.

وقد تكرست الطائفية السياسية، رسمياً، نتيجة لمذبحة ١٨٤٠ التي حدثت بين الدروز والموارنة، وأدّت إلى قيام نظام القائمقاميتين؛ هذا النظام الذي، بدلاً من أن يطفىء جذوة الطائفية في الصدور بقيام نظامين طائفيين مستقلين أو كونفدراليين بمصطلح اليوم، أجّجها وسعّرها بحيث نشبت الفتن الطائفية بين القائمقاميتين زهاء عشرين سنة، بدعوى تحرير الأقلية في القائمقامية لأخرى، ثم انتهت هذه الفتن إلى مذبحة ١٨٦٠.

ونتيجة لهذه المذبحة، تدخلت الدول الكبرى حينذاك وقدمت مشروع نظام سياسي جديد عرف ببروتوكول لبنان أو بالمتصرفية، وهو يتألف من سبع عشرة مادة، وقد رسّخ هذا النظام تكريس الطائفية السياسية في لبنان في النصوص، بأن جعلها أساس الحكم والادارة والقضاء، وقلص حدود لبنان، بأن سلخ عنه اقليم وادي التيم وبيروت وصيدا وطرابلس والبقاع وعكار، وفتح الباب رحباً أمام المدارس التبشيرية، فزادت هذه بدورها ترسيخ الطائفية في النفوس بالتثقيف الطائفي. وقد استمر هذا النظام حتى الحرب العالمية الاولى، حيث ألغاه العثمانيون.

وفي ظل هذا النظام الطائفي، أخذت بذور التمييز الطائفي بين اللبنانيين ومناطقهم تجد تربتها الخصبة، وبدأت الامتيازات تتكون في رحم المطامع والمطامح، وبدأت قضية لبنان تأخذ أبعادها.

وبالاستناد إلى هذه الاسس القانونية والخلفيات التثقيفية الممزوجة بالأطماع التوسعية والمنافية لمفهوم بناء الوطن، راحت تتكون الأيديولوجية المارونية:

«في ظل الادارة وارتكازاً إلى مصالح فرنسا وتركيز مؤسساتها التعلمية والثقافية، وتدخل قناصلها في كل صغيرة وكبيرة، نمت حركة سياسية مارونية وبأشكال تنظيمية مختلفة؛ لجان، اتحادات، عرائض إلى السفارات ووزارات الخارجية الاوروبية. فمنذ ذلك الحين، نلاحظ أن مشروعاً سياسياً بدأ يتكون لهذه الحركة قوامه التنظير للبنان – الوطن ورفع مطالب توسعية معينة وكتابة تاريخ يتلائم مع هذا المشروع. وكان هذا بالذات تعبيراً عن صعود طبقة جديدة مارونية من اصول جبلية (مقاطعجية وفلاحين) جمعت ثروتها من مصادر مختلفة: الهجرة، التجارة، الزراعة المرتبطة بالتسويق الخارجي، وفي أغلب الأحيان من هذه المصادر مجتمعة»[1].

وكانت هذه الطبقة وأيديولوجيتها وراء مطالبة فرنسا باستقلال لبنان واعادة الأجزاء التي سلخت عنه إليه، وقد حصل ذلك بتاريخ أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ حين أعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير؛ فعندها «اتسعت المساحة [مساحة المتصرفية] من ٣٥٠٠كلم٢، إلى ١٠٤٠٠ كلم٢ وزاد عدد السكان من نحو ٤١٤ ألف نسمة إلى نحو ٦٢٨ ألف نسمة، وأصبحت بيروت عاصمة لبنان، وكسب لبنان السهول في عكار والبقاع والجنوب فلم يعد عرضة للمجاعة كما حدث خلال الحرب، وأصبحت له مرافىء مهمة في